ظلم الجغرافيا ويقظة التاريـــــــخ

هل كان العراق سيقبل لحظة المواجهة مع أمريكا بعلاقة الذئب والحمل .. ؟ وهل يحتمل أن ينشأ حوار الذئب والحمل بينهما ؟ .. وأيهـــــــما أقرب للتعبير عن تكوينه .. القبول بقانون التصادم .. أم الخضوع لقانون الاحتواء ؟

لا شك أن العراق كان يشعر بالخطر .. وبوجود مؤامرة ضده .. ولهذا الشعور جذور أعمق مما يدور على السطح .. وأعمق مما يوحي به الحاضر ويفرزه . للإحساس بالخطر ، عاملان في التحريك والإثارة ، أحدهما جغرافي ، والآخر تاريخي ، وهما يشكلان في النموذج العراقي النسيج العصبي الداخلي لنمط السلوك السياسي والاجتماعي ، ويتراصف هذان العاملان مع ا لعوامل الاقتصادية المعبر عنها في التنازع على الثروة ومحاولة السيطرة على مصادر الطاقة ، التي يشعر العراق أن امتلاكه لها يحفز منافسيه واعداءه للانقضاض عليه بالحد الأعلى واحتوائه وترويضه بالحد الأدنى .

ولا يوجد شعب على وجه الأرض يشعر انه معرض للمخاطر ومحاط بالأحداث مثل شعب العراق ، الذي تتشكل عند أبنائه مشاعر خوف جماعية من وجود من يعمل على إفنائهم .. مع إحساسهم بوجود عدو قائم .. وعدو محتمل .. وهي مشاعر متأتية عن ارث تاريخي متراكم عمره ستة آلاف سنة . تعززه مشاعر أخري تولدت في العصر ا لحديث الذي نشأ على أنقاض بغداد المدمرة سنة 1258 للميلاد عندما استباحها الغزو المغولي .

ويستمد صانع القرار السياسي ، والنموذج الفكري المحلي جذوره من شعور عميق بالمأساة ترسخها في الذاكرة الجمعية الأسطورة العراقية الموروثة ، والحروب الأهلية – والخارجية ، والكوارث ، والمجاعات ، وحالات الموت الجماعي الناجم عن انتشار الأوبئة .

هل العراقيون من محترفي الحروب ؟ وهل انعكست روح العداء بين الأفراد على شكل عداء وتحسس في التعامل مع العالم الخارجي ؟ وهل شعر من لا بحر له انه محاصر فيقاوم بالغريزة طوقاً برياً يتشكل حوله من منافسين وأعداء ؟ وهل غدت العلاقة بين العراق وجيرانه علاقة ذئب وحمل ؟ وأيهما الحمل ؟ العراق المقاتل .. ؟ آم الجيران الطامعون في سهل العراق ، ومعادنه ، وموقعه ، وهم الجيران الذين استفزهم نموذج المحارب العراقي على مدى ستة آلاف سنة ؟

هذه الأسئلة ، وسواها ، شغلت العراقيين قبل غيرهم ، في إطار المفعم بالحيرة .. والتأمل .. والتحفز .. والتشبث بالهوية : من نحن ؟ .. وقد لا تكتمل الإجابة عند العراقي حتى يجد نفسه منغمراً اشتباك يحوله عن لحظة تأمل ، ظلت في تاريخه قصيرة ، وسط لحظات التوتر والاصطدام والمقاتلة ...

ويذهب العراقيون الى أبعد من ذلك في التساؤل : هل يستطيع العراق آن يحيا في كنف السبات والركود والسكون ؟

آم انه يذوي ويضمحل وقد يتفتت عندئذْ ؟

لم يظهر في العراق دعاة اجتماعيون يرون آن للحرب فوائد ، ولكن السياسيين كانوا يرون ، ومعهم مفكرون اجتماعيون آن للحرب وظيفة لا يمكن إنكارها بوصفها اختباراً لقدرة المجتمع على التكتل والتضامن وتجديد نفسه .

الجغرافيا ظالمة .. عندما تكون البلاد قارية شبه معزولة .. فرغم آن العراق يمتد على أطراف دلتا غنية بين نهرين كبيرين هما دجلة والفرات وما تفرع عنهما آو صب فيهما من أنهر صغيرة ، إلا أن العراق يعد بلداً قارياً محروماً من حافة رحبة على البحر ، وبترك هذا الوضع الجغرافي بصماته على التكون النفسي ، فالشعور بالعزلة ، والانغلاق وسط جيران منافسين وأعداء على البر يولد إحساساً بالضيق تحت ثقل طوق بري تتفاوت فيه درجتا الانحباس والانفتاح . وكثيراً ما شغلت أسطورة السندباد البحري العراقيين ، حتى آلت قصصه لتصبح إرثاً وطنياً ، فالسندباد البحري ، هو ا لعراقي المحروم من البحر الذي جعلته روح المغامرة يخوض عباب البحر منطلقاً من البصرة جنوب العراق ليخوض عباب البحر ويصنع معجزاته ومغامراته في كل جزيرة حل بها وشاطئ رسا عليه حتى وصل إلى أقصى أطراف العالم من جهة الشرق ، حتى وإذْ عاد كان محملاً كل مرة بحكايا الشجاعة والمغامرة التي يمكن للعراقي أن يصنعها لو انفتح البحر أمامه .

والأعمق من ذلك اعتقاد العراقيين انه كان لهم بحر من قبل .. ولم يعد لهم البحر اليوم ..

ويعتقد المؤرخون والآثاريون العراقيون ومعهم دارسو تاريخ الري في العراق ، ومنهم الدكتور احمد سوسة أن منطقة (الفاو) عند الحافة المطلة على الخليج جنوباً وشط العرب شرقاً هي منطقة حديثة العهد في تكونها الجيولوجي ، وان طبيعة أرضها الغرينية اللزجة ، تبرهن آن حافة العراق عند تلك النقطة كانت مغمورة بمياه الخليج ، وكانت اليابسة تقع على مسافة عميقة من البر العراقي الحالي ، بمعنى آن العراق كان يتمتع في العصور القديمة بشاطئ بحر واسع تقلص في تلك الحافة القريبة من جهة إيران بفعل انحسار مياه الخليج واتساع رقعة البر . ويُقدر الجغرافيون آن البحر كان يبتدئ من نقطة التقاء نهري دجلة والفرات في منطقة القرنة على مسافة اكثر من مئة كيلومتر من حافة البحر في العصر الحديث ، إذ آن (شجرة آدم) التي تشهد على جنة عدن كانت تقع على مقربة من حافة البحر ، ومكانها اليوم هو في هذا الوضع بمدينة القرنة على مسافة اكثر من 100 كيلومتراً من حافات البحر .

ويترتب على هذا الشاهد شعور جماعي بان البلاد كانت في يوم من الأيام ذات شاطئ متسع على البحر وقد تآكل هذا الشاطئ عبر العصور بفعل التحولات الجيولوجية التي شهدها العالم ، آما من جهة الجنوب ، والجنوب الغربي من نقطة الانفتاح على الخليج ، فان العراقيين المعاصرين ينظرون إلى الكويت على أنها جزء من شاطئهم على الخليج ، وان رجلاً إنكليزياً هو السير بيرسي كوكس قرر وحده سنة 1908 خلال اجتماع في خيمة بالصحراء بمنطقة العقير أن يجعل الكويت كياناً منفصلاً عن العراق ، ويعتقد المعاصرون من السياسيين والجغرافيين العراقيين أن خارطة العراق ذات انحراف وتقعر مصطنع لا بد من تصحيحه ، ولذلك فان الاستنتاج الذي توصل إليه صدام حسين عشية الثاني من آب 1990 ، وما سبقه ، يتطابق مع قناعة عامة ، كانت تنطفئ و تومض بفعل المتغيرات السياسية ومستوى العلاقات مع الكويت ونوعها .. ولذلك مد صدام يده إلى الخارطة في الثاني من آب مخاطباً مساعديه السياسيين والعسكريين: الكويت هي ميناء العراق ..

وكان نوري السعيد رئيس وزراء العراق الأسبق قد خلص إلى استنتاج مماثل وهو يخاطب البرلمان منتصف الخمسينات : (لا استقلالا ناجز للعراق ما لم يستعد منفذه الواسع في البحر) .

وتتميز فرصة العراقيين في انتزاع الحياة بأنها الفرصة المتأرجحة ، ولكنها الفرصة الذهبية عندما يمسك بها شعب من الشعوب ، طبقاً لتفسير المفكر الإنكليزي أرنولد توينبي للسلوك البشري ، الذي يذهب إلى أن هناك ثلاثة أنواع من الفرص ، إحداها تمثل لحظة التحدي الصعب التي لا تستطيع الشعوب مواجهتها فتصاب بالانهيار وتتعرض للاضمحلال والتلاشي والثانية لحظة التحدي البسيط وهي اللحظة التي لا تحتاج الشعوب لمواجهتها إلى جهد كبير فتصاب بالخمول ، أما لحظة التحدي الذهبي فإنها تمثل الفرصة التي تُمكن الشعب الحي من انتزاع فرصته في الحياة إذا أجاد التأمل معها ولم يفقدها وهي لحظة متوازنة بالنسبة للعراقيين وتتصل مباشرة بطبيعة بلادهم التي تحويا على الآراء من نهري دجلة والفرات ، فإذا ما أهملوا الآراء أجدبت الأرض وهلك الإنسان والماشية والزرع وذا ظل متحفزاً منتجاً انتزع فرصته في الحياة على ضفاف النهرين وانتعشت حياة الزرع والماشية ، ولذلك صار على العراقي إن يعمل ولا يغفل العمل لحظة واحدة فانه بذلك قد يخسر فرصته في الحياة كلها . وهو الآمر الذي يفرض على الفلاح والمزارع والراعي وأصحاب الحرف في هذه البلاد أن يمتنعوا عن الغفلة لانهم بذلك يخسرون الفرصة الذهبية .

ويرى المؤرخ العراقي طه باقر " أن حضارة وادي الرافدين تمتاز بالحدة وتوقع المفاجآت والفواجع " وهو استنتاج يبنيه على أساس ما تركته الطبيعة من آثار على السلوك البشري في العراق .

ويزداد شعور العراقيين بالضيق كلما تطلعوا جهة الشرق إذ تنساب بلادهم في الوسط والجنوب أرضاً سهلة منفتحة في مواجهة الهضبة الإيرانية المرتفعة التي شهدت على مدى اكثر من 400 سنة منذ 1521 ميلادية سلسلة حروب وغزوات كانت تنحدر من الهضبة الإيرانية المنيعة باتجاه أرض العراق السهلة المنبسطة وتبدو مساحة العراق ضئيلة إزاء مساحة إيران المنافسة إذ تقل عنها بثلاث مرات ونصف المرة بحيث يغري العامل الجغرافي أية خطة عسكرية إيرانية للاندفاع باتجاه العراق ، وهكذا ظلت العلاقة بين العراق وإيران محكومة بهاجس الخوف والتوتر والخطر . والتاريخ أيضاً محفز لإيقاظ الشعور بالخطر .

فليس من الصواب تفسير السلوك السياسي العراقي تحت وطأة المتغيرات السياسية وتفاعلات الأحداث والظروف والمواقف المستجدة ، وليس من الصواب التعامل مع الشعوب العريقة على أساس رد الفعل المحتمل إزاء الحدث الآني ، فمثل هذه الشعوب تتصرف على أساس ما تستمده من ارث متراكم ، وعقد قديمة ، وحسابات ثقيلة ، وهي في العادة لا تستطيع أن تجد أنها ذات قيمة في الحاضر ما لم تنشط إحساسها بأنها وريثة أمس كبير ، وبهذه الطريقة ينعش التنويريون العرب المعاصرون الإحساس بالذات الوطنية والقومية . ويعدون الانتساب إلى ماض متراكم في الأحداث والشواهد والخبر والمواقف والانتصارات والانتكاسات ، عامل تحريك فعّال للذات في لحظتها الآنية .

فهل كان العراق سيقبل لحظة المواجهة مع أمريكا بعلاقة الذئب والحمل .. ؟ وهل يحتمل أن ينشأ حوار الذئب والحمل بينهما .. ؟ وأيهما أقرب للتعبير عن تكوينه .. القبول بقانون التصادم آم الخضوع لقانون الاحتواء .. ؟

مرة أخرى ، لم تكن هناك دافعية أقوى في التأثير من ا الشعور بالخطر المحدق ليس من اللحظة الآنية ، ولكن تحت وطأة المتراكم من التجارب .. ولذلك لم يكن العراق مطمئناً حيثما استدار في الاتجاهات .. ففي لحظة الاصطدام بالغرب المسيحي عشية دخول الكويت وبعده ، كانت ثمة عقد ثلاث تحرك مكامن الشعور بالخطر :

الأولى : عقدة (كسرى) التي تمثل الخطر الفارسي القديم الذي تبلور سياسياً بما يعرف بالشعوبية كتيار غير عربي أراد الهيمنة على الدولة العباسية

واستلاب دور القيادة من العرب ، وهي عقدة تعود جذورها إلى يوم انهيار بلاط كسرى في معركة القادسية التي انهزم فيها القائد الفارسي رستم أمام زحف سعد بن آبى وقاص على أرض العراق .

الثانية : عقدة (بابل) التي تعكس الخطر الصهيوني الذي تعبر عنه وتمثله (إسرائيل) وتعود جذوره إلى الآسر البابلي عندما تمكن العراقيون القدامى في سنة 538 ق .م من تدمير الهيكل اليهودي وأسر اليهود وجلبهم إلى بابل ، ولذلك احتل العراق في الأيديولوجية الصهيونية مكانة مشحونة بتراكم عناصر تاريخية ودينية بعد أن أقام العبرانيون في أرض العراق أكثر من ألفي سنة ، ويتخذ الاهتمام اليهودي في العراق من وعد ألهي مصدراً له منسوباً إلى وصية في التوراة للنبي إبراهيم (أنژ لنسلهك أعطه هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات) – سفر التكوين 15 : 18 – وتحولت هذه الوصية إلى دعوة معاصرة على لسان موشي دايان وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق بعد ساعات قليلة من دخول القوات الإسرائيلية مدينة القدس في 6 حزيران (يونيو) 1967 عندما قال (لقد استولينا على أورشليم ونحن في طريقنا إلى بابل) ، وكان مؤسس الحركة الصهيونية تيودور هوتزل قد فكر سنة 1903 بإيجار مستعمرات يهودية في العراق من خلال اتصالاته مع رجالات الدولة العثمانية ، ناهيك عن ما استجد من مواقف العداء والتربص على مدى نصف القرن الماضي عندما بدأت أولي خطوات إنشاء إسرائيل .

الثالثة : عقدة بلاط الشهداء التي تعود إلى سنة 750 للميلاد عندما خسر العرب معركة كبيرة في فرنسا الجنوبية نشأ على أنقاضها خوف دائم من من النزوع العربي المحتمل لغزو أوربا وهو الآمر الذي أيقظ مشاعر العداء ضد العرب الذي لم تحسمه المعارك في الحروب الصليبية بين القائد الأوربي ربتشارد قلب الأسد والقائد العراقي صلاح الدين الأيوبي .

ولذلك فان التصادم الآني ، مع الغرب المسيحي ، وإسرائيل ، وإيران ، مبنى في جانب فعّال منه على عُقد تاريخية ويعود إلى روح الثأر والانتقام وعدم الثقة مما ترسم عن الصدامات والحروب على مدى ستة آلاف سنة